﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [القصص: 36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين شدِّ أزرِ موسى بهارون، واتِّهامه بالسِّحر ومخالفةِ الآباء الأوَّلين

بعدَما أخبرَ ﷻ عمّا جَرَى مِنْ تكليمِ اللّهِ تعالى لموسى عليه السلام وشدِّ أزره بأخيه؛ أخبرَ سبحانه تعالى عمّا جَرَى بعدَ مجيء موسى وهارونَ عليهما السلام إلى فرعونَ وقومِهِ بآيات اللّه البيِّنات، فقوبِلَ بالإنكار والتَّكذيب، وزعمَ الكفرة الجاحدون أنَّ ما جاءا به سِحرٌ مفترًى، وأنَّه بِدع من القول لم يعهدوه في آبائهم الأوَّلين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾: (بين) أصلٌ يدلُّ على بُعْدِ الشَّيءِ وانكشافِهِ، فبانَ الشَّيءُ، وأبانَ؛ إذا اتَّضحَ، وانكشفَ؛ والبيِّنةُ: الدَّلالةُ الواضحةُ، عقليَّةً كانَتْ أم محسوسةً، والبيانُ: الكَشْفُ عنِ الشَّيءِ، وسُمّيَ ما يُشْرَحُ بهِ المُجْمَلُ والمُبْهَمُ مِنَ الكلامِ بيانًا، قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: 19]، وتقولُ: بيَّنْتُهُ، وأبَنْتُهُ؛ إذا جعلتَ لهُ بيانًا، نحو قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النّحل: 44][1]، فالبيِّنات في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾: هي التي تثبت صِدْقَ دعوى النُّبوَّة بأمور ظاهرة واضحة للجميع، والمرادُ بالآياتِ البيِّناتِ: خوارقُ العاداتِ الَّتي أظهرَها موسى عليه السلام، أي: جاءَهم بها آيةً بعدَ آيةٍ في مواقعَ مختلفةٍ[2].

2) ﴿سِحْرٌ﴾: (سحر) أصلٌ يدلُّ على خِداعٍ وشِبْهِهِ[3]، ويأتي

(1) الرّاغب، المفردات: (بين).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 119.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).

السِّحْرُ على معانٍ: الأوَّلُ الخِداعُ وتخييلاتٌ لا حقيقةَ لها، نحو ما يفعلُهُ المُشعبِذُ بصرفِ الأبصارِ عمّا يفعلُهُ لخِفَّةِ يدٍ، وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ [الأعراف: 116][1]، والثّاني: استجلابُ معاونةِ الشَّيطانِ بأعمالٍ يفعلونَها يتقرَّبونَ بها إليه[2]، كقولِهِ تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٢٢٢﴾ [الشّعراء: 221 - 222]، والثّالثُ: اسمٌ لفعلٍ يزعمونَ أنَّهُ مِنْ قوَّتِهِ يُغيِّرُ الصّوَرَ والطَّبائعَ، فيجعلُ الإنسانَ حمارًا، ولا حقيقةَ لذلكَ عندَ المُحقِّقينَ، والسِّحر الذي نُسِبَ زورًا إلى موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ من النَّوع الأوَّل[3].

3) ﴿مُّفۡتَرٗى﴾: (فري) أصلٌ يدلُّ على قطعِ الشَّيءِ[4]، فالفَرْيُ: قطعُ الجِلْدِ للخَرْزِ والإصلاحِ[5]، والافتراءُ: افتعالٌ مِنَ الفَرْيِ أو الإفراءِ، وهو أقبحُ الكذبِ، أو الكذبُ معَ التَّعمُّدِ[6]، يقالُ: فَرَى فلانٌ كذبًا؛ إذا خلقَهُ، وافتراهُ: اختلقَهُ[7]، وكلُّ ما في القرآن من لفظ الافتراء، فهو بمعنى اختلاق ما لا حقيقة له، قال تعالى على لسان قوم مريم: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ۝٢٧﴾ [مريم: 27]، فُسِّرَ الفَريُّ بالشَّيء العظيم المفترى، وبالمختلق المفتعل[8]، ووقعَ لفظ الافتراء في القرآن، والمرادُ بهِ الشِّركُ والظُّلمُ بحسَبِ السّياقِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [النّساء: 48][9]، والمُفترَى: المكذوبُ[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أبانت هذه الآية الكريمةُ أنَّه لمّا جاءَ موسى عليه السلام بالآيات البيِّنات والحجج الواضحات من ربِّه تعالى؛ تلقّاه فرعونُ وملَؤُه بالتَّكذيب والإنكار، زاعمين أنَّ ما جاء به إنَّما هو سحرٌ مفترًى مَدْسوسٌ، شأنُه شأنُ السِّحر الَّذي نبغ فيه السَّحرة الَّذين كانوا يؤيِّدون

(1) الرّاغب، المفردات: (سحر).
(2) الخليل، العين: (سحر).
(3) الرّاغب، المفردات: (سحر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فري).
(5) الرّاغب، المفردات: (فري).
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ: (فري).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (فري).
(8) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرى).
(9) الرّاغب، المفردات: (فري).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 119.

فرعونَ، وينتصرون له بما يخدعون النّاس به من تخييل وتزييف، معلِّلين إنكارَهم ذلك بأنَّ ما جاء به موسى عليه السلام من آيات لم يكن آباؤهم الأوَّلون يسمعون به، أو يعرفونه في غابر زمانِهم، ولذلك كان باطلًا بزعمهم[1].

تكذيبُ فرعونَ وقومِهِ بالحقِّ المرسل، وزعمُهم أنَّ البيِّناتِ سحر مفترًى

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ في ﴿فَلَمَّا﴾:

الفاءُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ فصيحةٌ، وهي تُفصِحُ عن جملةٍ محذوفةٍ، والتَّقديرُ: (فأتاهم موسى عليه السلام، كما أمرَ اللّهُ، وعاضدَهُ أخوهُ، كما أخبرَ اللّهُ، ودعَواهم إلى اللّهِ تعالى، وأظهرا ما أُمِرا بهِ مِنَ الآياتِ، فلمّا جاءَهم موسى بآياتنا بينات؛ قالوا: ما هذا إلّا سحرٌ مفترًى)[2].

مجيءُ موسى عليه السلام بالآيات هداية وبلاغ

بلاغةُ الإيجازِ في الآيةِ الكريمة:

طويَ ما بينَ نداءِ اللّهِ موسى عليه السلام وبينَ حُضورِهِ عندَ فرعونَ المحكيِّ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ كثيرٌ مِنَ الأحداثِ، لعدمِ تعلُّقِ العِبْرةِ بهِ[3]، وتدلُّ الفاءُ الفصيحةُ في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾ على هذا الحذفِ، ولا ريبَ أنَّ الأحداث المطويَّة بالإيجاز سوف تفتح أُفُقًا لاستكمال المشهد، وربطِ أجزائه المذكورة بأجزائه المستورة، وفي هذا قدحٌ للذِّهن، وإشراك للمتلقّي بنسج الفراغات المحذوفة حتّى تكتمل القصَّة، وتتَّضح الصّورة النِّهائيَّة للمشهد الكلّي.

طيُّ كثيرٍ من الأحداث بينَ النِّداءِ والمجيءِ مفيدٌ في الإبانة عن المراد

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿جَآءَهُم﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في فعل المجيء من قولِهِ ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم

مجيءُ موسى عليه السلام بالآياتِ البيِّناتِ أمرٌ مُحقَّقٌ بلا افتئات

(1) عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 346.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 292.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 118.

﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ مجيءِ موسى ﷺ بالآياتِ ووقوعِهِ، وأنَّهُ أمرٌ قد مضَى، وانقضَى، فيُخبَرُ عنهُ بالماضي كما هو شأنُ الإخبارِ بالأحداثِ والقصصِ.

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿جَآءَهُم﴾:

فـرعـونُ وآلـهُ هم المقصودونَ بالآياتِ البيِّناتِ

ضميرُ المفعول لفعل المجيء من قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ راجعٌ لفرعونَ وقومِهِ، والمعنى: فلمّا جاءَ موسى ﷺ فرعونَ وملأَهُ بآياتِنا بيِّناتٍ[1]؛ جحدوا بها، وكذَّبوه.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ المجيءِ دونَ الإتيانِ:

دلالـةُ المجيءِ عـلى حـصـول الفعل

عُبِّرَ بالمجيءِ دونَ الإتيانِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾؛ لأنَّ الإتيانَ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ، وإنْ لم يكنْ منهُ الحصولُ، وأمّا المجيءُ؛ فيقالُ اعتبارًا بالحصولِ[2]، فتكونُ دلالةُ (جاءَ) على المجيءِ، أقوى مِنْ دلالةِ (أتى)[3]، ويكونُ الإتيانُ أعمَّ مِنَ المجيءِ مِنْ هذهِ النّاحيةِ.

سرُّ تخصيصِ موسى بالذِّكرِ:

مـوسى ﷺ هـو الأصـلُ في النُّبوَّة، وهارون معينٌ له

تخصيصُ موسى ﷺ بالذِّكرِ، وإسنادُ المجيءِ بالآياتِ إليهِ وحدَهُ دونَ هارونَ ﷺ، في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾؛ لأنَّ موسى ﷺ أصلٌ في التَّشريعِ، وهارونَ ﷺ تابعٌ ومُؤَيِّدٌ لهُ[4]؛ ولأنَّ ظهورَ الآياتِ إنَّما هو في يدِ موسى ﷺ[5].

معنى الباءِ في شبه الجملة ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

مـجـيءُ مـوسى ﷺ كان بصحبة الآياتِ البيِّناتِ، مُتلبِّسًا بها

الباءُ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾؛ للمصاحبةِ لا للتَّعديةِ؛ إذ المرادُ مجيءُ موسى ﷺ إلى فرعونَ وقومِهِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 292.
(2) الراغب، المفردات: (جاء).
(3) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 50.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 292، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 517.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 517، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 118.

مُتلبِّسًا بالآياتِ، مُتمسِّكًا بها في إجراءِ أحكامِ الرِّسالةِ، وإكمالِ أمرِ الدَّعوةِ، لا مُجرَّدُ إيصالِها إليهِم[1].

نكتةُ جمعِ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾:

بيانُ أنَّ آياتِ موسى عليه السلام عديدةٌ ومُتنوِّعةٌ

جيءَ بصيغةِ جمعِ الآياتِ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾؛ للإشارةِ إلى تعدُّدِ الآياتِ وتنوُّعِها؛ إذ المرادُ بها: خوارقُ العاداتِ الَّتي أظهرَها موسى عليه السلام، أي: جاءَهم بها آيةً بعدَ آيةٍ في مواقعَ مختلفةٍ[2]، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بها الآياتِ التِّسعَ[3]، التي وردت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ [الإسراء: 101]، وهي: العصا، واليد، والسِّنون، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدَّم، كما ورد عن ابن عبّاس[4].

ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بها: اليدَ والعصا، فإنَّهما وإنْ كانتا اثنتين، لكنَّ في كلٍّ منهما آياتٍ شتَّى، فإنَّ انقلابَ العصا حيوانًا آيةٌ، وكونَها ثُعبانًا عظيمًا لا يُقادَرُ قَدْرُهُ آيةٌ أخرى، وسرعة حركتِهِ معَ عِظَمِ جُرْمِهِ آيةٌ أخرى، وكونُهُ معَ ذلكَ مُسخَّرًا لهُ عليه السلام - بحيثُ كانَ يُدخِلُ يدَهُ في فمِهِ؛ فلا يضرُّهُ - آيةٌ أخرى، ثمَّ انقلابها عصًا آيةٌ أخرى، وكذلكَ اليدُ: فإنَّ بياضَها في نفسِهِ آيةٌ، وشُعاعَها آيةٌ، ثمَّ رجوعَها إلى حالتِها الأولى آيةٌ أخرى[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالآياتِ:

تأييدُ موسى عليه السلام بالعلاماتِ نصرٌ وتمكين

عُبِّرَ عن خوارقِ العاداتِ الَّتي جاءَ بها موسى عليه السلام بالآياتِ في قولِ الحقِّ تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾؛ لِما يُشيرُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 17.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 119.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 516.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 124.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 17.

إليهِ معناها اللُّغويُّ مِنْ كونِها علاماتٍ دالَّةً على صِدْقِ موسى عليه السلام فيما جاءَهم بهِ مِنْ ربِّهِ.

بلاغةُ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

أُضيفَتِ الآياتُ إلى الضَّميرِ الدّالِّ على التَّعظيمِ، في قولِهِ ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ الآياتِ وتفخيمِهِ، فآياتُ العظيمِ المنسوبةُ إليهِ عظيمةٌ، وفي هذهِ الإضافةِ أيضًا مزيدُ إقامةٍ للحُجَّةِ على فرعونَ وقومِهِ، ببيانِ أنَّ الآياتِ الَّتي جاءَهم بها موسى عليه السلام، وكذَّبوها، مصدرُها إلهيٌّ.

آيـــاتُ الـلـه عظيمةٌ، لا يؤيِّد بـهـا إلّا الـعـليُّ العظيم

دلالةُ وصفِ الآياتِ بلفظ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾:

وُصِفَتِ الآياتُ بكونِها بيِّناتٍ، في قولِهِ ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾؛ للمبالغةِ في إقامةِ الحُجَّةِ على فرعونَ وقومِهِ، لِما في هذا الوصفِ مِنَ الإشارةِ إلى وضوحِ الآياتِ في الدَّلالةِ على صِدْقِ موسى عليه السلام[1]، وأنَّهُ لا غُموضَ فيها ولا التباسَ، فلا عُذْرَ للمُعرِضينَ عنها.

آياتُ موسى عليه السلام في غايةِ الوضوحِ والإبـانـة عـن الحقِّ

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في الفعل ﴿قَالُواْ﴾:

جيءَ بفعلِ القولِ في قولِهِ ﷻ: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ماضيًا للدَّلالةِ على تحقُّقِ القولِ ووقوعِهِ، وأنَّهُ أمرٌ قد مضَى، وانقضَى، فيُخبَرُ عنهُ بالماضي، كما هو شأنُ الإخبارِ بالأحداثِ والقصصِ، والمرادُ: أنَّهم قالوا عندَ كلِّ آيةٍ جاءَهم بها موسى عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2].

قولُهم الكاذبُ أكيد الحصول لأصالة الكفر في نفوسهم

مرجعُ الضَّميرِ في لفظ ﴿قَالُواْ﴾:

ضميرُ الفاعلِ لفعلِ القولِ من الآيةِ الكريمةِ: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ راجعٌ إلى فرعونَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 305، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 287.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 119.

بيانُ أنَّ فرعون وقومَهُ هم كانوا ينسبون لموسى الافـتراء؛ كـذبًا منهم وافتراء

وقومِهِ[1]، والمعنى: (قالَ فرعونُ وقومُهُ ما هذا إلّا سِحْرٌ مُفترًى، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين)، وقولُهم هذا مَحْضُ كذبٍ وافتراءٍ، فهُم أحقُّ مِنَ الآياتِ بوصفِ الافتراءِ؛ إذ إنَّ توالِيَ البراهينِ، وسطوعَ الأدلَّة، لا تدع مجالًا لكاذب، ولا فرصةً لمكذِّبٍ، بل لا يكون مَن يعاند الأدلَّة القاطعة إلّا معاندًا جحودًا، أو أفّاكًا كنودًا.

دلالةُ القصرِ بالنَّفي والاستثناء ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا﴾:

نـفـيُ كـونِ الآياتِ شيئًا غيرَ السِّحرِ، وهم موقنون بأنَّها عكس ذلك

﴿مَا﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ نافيةٌ، وهي مع أداة الاستثناء ﴿إِلَّا﴾ تفيدُ القصر، بانتفاءِ كونِ الآياتِ شيئًا غيرَ السِّحرِ في زعمِهم، وهو قصرٌ لموصوف (ما جاءَهم بهِ موسى عليه السلام) على صفة (السِّحْر المُفترَى)، وفي هذا القصرِ مبالغةٌ منهُم، حيثُ يوهِمُ القصرُ أنَّهم لم يَجِدوا بعدَ البحثِ وصفًا لِما جاءَهم بهِ موسى عليه السلام إلّا وصفَ السِّحْرِ المُفترَى، فهُم واجهوا إرسالَ موسى عليه السلام بالتَّجريح باللِّسان، وامتطوا أمواج البهت والكذب في نسبة الآيات إلى السِّحر؛ لأنَّهم يرون المعجزة كعصا موسى تكون على حالة، ثمَّ تنقلب إلى حالة أخرى، ثمَّ تعود سيرتَها الأولى، فقالوا: إنَّه سِحرٌ يفتعله موسى، ويفتريه على اللّٰه، وهم في ذلك يدلِّسون الحقَّ، ويفترون على اللّٰه الكذب[2].

علَّةُ إفرادِ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾:

بيانُ أنَّ المُشارَ إليهِ مدركٌ بتأويلِ المذكورِ

المُشارُ إليهِ بـ﴿هَٰذَآ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ مُتعدِّدٌ، وهو الآياتُ البيِّناتُ الَّتي جاءَهم بها موسى عليه السلام، وقد أُشيرَ إليهِ باسمِ الإشارةِ المفردِ؛ لأنَّهُ بتأويلِ المذكورِ، والمعنى: (قالوا: ما المذكورُ مِنَ الآياتِ البيِّناتِ إلّا سِحْرٌ مُفْتَرًى)[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 292.
(2) محمّد مطنيّ، سورة القصص دراسة تحليليّة: 1/ 435.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 517.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للقريبِ ﴿هَٰذَآ﴾:

يدلُّ استعمالُ اسمِ الإشارةِ للقريبِ في قولِ اللهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ على تحقيرِ فرعونَ وقومِهِ للمُشارِ إليهِ، وهو الآياتُ البيِّناتُ الَّتي جاءَهم بها موسى ﷺ، فَهُمْ قد جَمَعوا بينَ الإنكارِ والتَّكذيبِ، وبينَ الاستهزاءِ والتَّحقيرِ، كما هو دَيْدَنُ المُستكبرينَ في كلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ المُكذِّبةِ.

الآياتُ البيِّناتُ غيرُ معتبرةٍ في ميزانِ فرعونَ وملَئِهِ

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿سِحۡرٞ﴾:

تنكيرُ لفظِ السِّحرِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ للإفرادِ، أي: ما هذا إلّا فردٌ مِنْ أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالسِّحْرِ، وقد كانَ فرعونُ وقومُهُ يقولونَ ذلكَ في حقِّ كلِّ آيةٍ مِنَ الآياتِ الَّتي جاءَهم بها موسى ﷺ، ويحتملُ التَّنكيرُ أنْ يكونَ لتهويلِ شأنِ هذا السِّحرِ في زعمِهم.

زيفُ مزاعمِ الجبابرةِ بأنَّ الآياتِ البيِّناتِ سِحْرٌ مفترًى

نكتةُ اختيارِ مفردةِ السِّحرِ:

وصفَ فرعونُ وقومُهُ في قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ الآياتِ البيِّناتِ الَّتي جاءَهم بها موسى ﷺ بكونِها سِحْرًا، لشُيوعِ السِّحْرِ وانتشارِهِ فيما بينَهم، ولمّا رَأوا في آياتِ موسى ﷺ ما فيهِ خَرْقٌ للعادةِ؛ نَسَبوهُ إلى السِّحرِ مكابرةً وعنادًا، وتضليلًا لعوامِّ النّاسِ؛ لأنَّهم يرونَ الشَّيءَ على حالةٍ، ثمَّ يرونَهُ على حالةٍ أخرى، ثمَّ يعودُ إلى الحالةِ الأولى، فزعموا أنَّهُ سِحْرٌ يفتعلُهُ موسى، ويفتريهِ على اللهِ[1].

شُيوعُ السِّحْرِ في قومِ فرعونَ مناسِبٌ لنوعِ المعجزةِ القاهرةِ

نكتةُ وصفِ السِّحْرِ بالافتراءِ:

قولُ فرعونَ وملَئِهِ: ﴿سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾، معناهُ: سِحْرٌ ظاهرٌ افتراؤُهُ[2]، غيرُ خافٍ على أحدٍ[3]، فالافتراءُ هنا بمعنى الاختلاقِ،

شتّانَ بينَ زيفِ صنعةِ السِّحرِ البشريَّةِ، وسُموِّ المعجزاتِ الإلهيَّةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 305.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 411، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 4/ 178.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 57.

ويكونُ مرادُهم بالسِّحْرِ: السِّحْرَ المخصوصَ الَّذي اخترعَهُ، ولم يَنسُبْهُ إلى اللهِ تعالى، فـ﴿مُّفْتَرًى﴾ على هذا الوجهِ صفةٌ مُخصِّصةٌ مُقيِّدةٌ[1]، أو معناهُ: سِحْرٌ تتعلَّمُهُ أنتَ، ثمَّ تفتريهِ على اللهِ[2]، على أنَّ الافتراء هو الكذب، فيكونُ المرادُ بهِ: السِّحْرَ المخصوصَ أيضًا معَ زيادةِ أمرٍ، وهو اختلاقُهُ ونسبتُهُ إلى اللهِ تعالى، و﴿مُّفْتَرًى﴾ على هذا الوجهِ أيضًا صفةٌ مُخصِّصةٌ مُقيِّدةٌ[3]، أو معناهُ: موصوفٌ بالافتراءِ كسائرِ أنواعِ السِّحرِ، وليسَ بمعجزةٍ مِنْ عندِ اللهِ[4]، فيكونُ المرادُ بهِ: مُطلَقَ السِّحْرِ، وعلى هذا الوجهِ يكونُ ﴿مُّفْتَرًى﴾ صفةً مُؤكِّدةً[5].

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿مُّفْتَرًى﴾:

افـتراءُ السِّحرِ أمرٌ ثابتٌ مُستقِرٌّ في زعمِ فرعونَ ومن والاه

جيءَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ للافتراءِ في قولِ الحقِّ عزَّ شأنُهُ: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الافتراءَ الَّذي وُصِفَ بهِ السِّحْرُ أمرٌ ثابتٌ في زَعمِهم ومُستقِرٌّ، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، ولا مَناصَ منهُ، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ منهُم في إثباتِ حقيقةِ السِّحرِ للآياتِ البيِّناتِ، ومزيدُ مكابرةٍ وعنادٍ، وفَرْطُ وُثوقٍ بما هُم عليهِ مِنَ الضَّلالِ والتَّكذيبِ.

معنى واوِ ﴿وَمَا﴾:

جمعُ فرعونَ وقومِهِ بينَ وصفِ الحقِّ بالسِّحرِ، ونفيِ السَّماعِ بمثلِهِ سلَفًا

الواوُ في قولِهِ ﷺ حكايةً عن فرعون وقومه: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عاطفةٌ لهذهِ الجملةِ على جملةِ مَقولِ القولِ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾، فتفيدُ التَّشريكَ بينَهما في كونِهما مِنْ مَقولِ قولِ فرعونَ وقومِهِ، وزعْمُ فرعون ومَلَئِهِ بأنَّ دعوة موسى ﷺ إلى الإيمان بالله ربِّ العالمين - الَّذي له ملك السَّموات والأرضين - لم

(1) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 518.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 411، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 178.
(3) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 518، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 178.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 411.
(5) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 518.

يسمعوها من قبلُ، لِما كانوا عليه في أرض مصر، واعتادوه، وألِفوه من عبادة الآلهة الكثيرة، من آدميّين وحيوانات وطيور وكواكب ونجوم ...، وهذا ما ملأ شعور فرعون بأنَّه الإلهُ المتفرِّد، فقال قولته الآثمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[1].

معنى (ما):

نـفـيُ فـرعـونَ وقومِهِ السَّماعَ بـمـثـل هـذا في أجدادِهم

(ما) في قولِهِ ﷻ حكايةً عن فرعون وقومه: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ نافيةٌ، أي: ما حُدِّثْنا بكونِ ذلكَ فيهم، وهم كاذبونَ في ذلكَ، فقد سَمِعوا، وعَلِموا بنحوِهِ، أو يريدونَ أنَّهم لم يسمعوا بمثلِهِ في فظاعتِهِ، أو ما كانَ الكُهّانُ يُخبِرونَ بظهورِ موسى ومجيئِهِ بما جاءَ بهِ، ويحتملُ أنَّهم جعلوا انتفاءَ بُلوغِ مِثلِ هذهِ الدَّعوةِ إلى آبائِهم - حتَّى تصلَ إليهم بواسطةِ آبائِهم الأوَّلينَ - دليلًا على بطلانِها، وذلكَ آخِرُ ملجأٍ يلجأُ إليهِ المحجوجُ المغلوبُ، حينَ لا يجدُ ما يدفعُ بهِ الحقَّ بدليلٍ مقبولٍ، فيفزعُ إلى مِثلِ هذهِ التَّلفيقاتِ[2]، فهو دليلٌ على أنَّهم حُجّوا، وبُهِتوا، وما وجدوا ما يدفعونَ بهِ ما جاءَهم مِنَ الآياتِ إلّا قولَهم: هذا سِحْرٌ وبِدْعةٌ لم يسمعوا بمثلِها[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿سَمِعْنَا﴾:

الـدَّلالـةُ على تـحـقُّـقِ انـتـفـاءِ الـسَّـمـاعِ؛ لتسويغِ الإنكارِ والاستغرابِ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ جلَّ شأنُهُ حكايةً عن فرعون وقومه: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ انتفاءِ السَّماعِ ووقوعِهِ، وكأنَّ نفيَ السَّماعِ مُستغرِقٌ لزمانِ آبائِهم الأوَّلينَ، وفي ذلكَ إشعارٌ بفَرْطِ تكذيبِهم وعنادِهم، ومزيدِ وُثوقِهم بانتفاءِ السَّماعِ.

معنى الباءِ ونكتةُ تعديةِ السَّماعِ بها:

لمّا كانَ السَّماعُ المنفيُّ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ حكايةً عن فرعون وقومه: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ليسَ سماعًا بآذانِهم

(1) عبدالكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/ 347.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 119.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 411.

نـفـيُ فـرعـونَ ومـلَـئِهِ بُلوغَهم مِثلَ هذا في زمنِ آبائِهم

لكلامٍ في زمنِ آبائِهم، بل المرادُ: ما بلغَ إلينا وقوعُ مِثْلِ هذا في زمنِ آبائِنا؛ عُدّيَ فعلُ السَّماع بالباءِ لتضمينِهِ معنى الاتِّصالِ، والباءُ للإلصاقِ[1]، ويحتملُ أنْ تكونَ الباءُ في قولِهِ: ﴿بِهَذَا﴾ صِلَةً في المفعولِ بهِ، أي: ما سَمِعْنا هذا واقعًا في أيّامِ آبائِنا الأوَّلينَ[2].

تعيينُ مَرجِعِ اسمِ الإشارةِ (هَذا):

الإشـــارةُ إلى السِّحرِ أو ادِّعاءِ النُّبوَّةِ أو ما جاء بـه مـوسى من الحقِّ

الإشارةُ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ حكايةً عن فرعون وقومه: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ راجعةٌ إلى السِّحرِ[3]، أو إلى ادِّعاءِ النُّبوَّةِ[4]، ويحتملُ أنَّهم يَعنونَ عبادةَ اللهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، أي: ما رأيْنا أحدًا مِنْ آبائِنا على هذا الدّينِ، ولم نرَ النّاسَ إلّا يُشرِكونَ معَ اللهِ آلهةً أخرى[5]، ويجوزُ أنْ يكونَ قصدُهم نفيَ سماعِهم أنَّ للعالَمِ إلهًا يُرسِلُ الرُّسُلَ بالآياتِ[6].

دلالةُ اسمِ الإشارةِ (هذا):

غـايـةُ الاحـتـقـار أن يـضـاف إليه الاسـتـهـزاء بالمشار إليه

يدلُّ استعمالُ اسمِ الإشارةِ للقريبِ، في قولِ اللهِ جلَّ ذكرُهُ حكايةً عن فرعون وملَئِهِ: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، على تحقيرِهم للمُشارِ إليهِ، وهو ادِّعاءُ النُّبوَّةِ، فيكونونَ قد جَمَعوا بينَ الإنكارِ والتَّكذيبِ، وبينَ الاستهزاءِ والتَّحقيرِ، كما هو شأنُ المُستكبِرينَ في كلِّ أمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ، المُتمرِّدينَ على الشَّرائعِ.

دلالةُ ﴿فِي﴾:

غرابةُ الزَّعم بأنَّ زمـان آبـائِـهـم الأوَّلـيـنَ كـان خاليًا من النُّبوَّةِ

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الواردُ في قولِ اللهِ تعالى ذكرُهُ، حكايةً عن فرعون وقومه: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾؛ للظَّرفيَّةِ

(1) أطفيّش، تفسير أطفيّش: 7/ 383.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 287، وأطفيّش، تفسير أطفيّش: 7/ 383.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 178، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 13، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 119.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 178، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 13.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العَظيم: 6/ 237.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 522.

الزَّمانيَّةِ، والمعنى: وما سَمِعْنا بهذا في زمنِ آبائِنا الأوَّلينَ، فيفيدُ خُلوَّ زمنِ آبائِهم - في زعمهم - مِنْ سماعِ مِثْلِ ذلكَ.

نكتةُ إيجازِ ﴿فِي ءَابَآئِنَا﴾:

لمّا كانَ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الواردُ في قولِ الحقِّ تعالى شأنُهُ حكايةً عن فرعون وملَئِهِ: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ للظَّرفيَّةِ الزمانيَّةِ، وهو يقتضي زَمَنًا؛ تعيَّنَ أنْ يكونَ مدخولُهُ على تقديرِ مضافٍ؛ لأنَّ الآباءَ لا يَصلُحُ للظَّرفيَّةِ، أي: وما سَمِعْنا بهذا في مُدَّةِ آبائِنا الأوَّلينَ[1]، وهذا مِنْ إيجازِ الحذفِ.

نـفـيُ الـسَّـمـاعِ بادِّعاءِ النُّبوَّةِ في زمن الآباءِ قناعةٌ مستغربة

بلاغةُ وصفِ الآباءِ بـ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

قولُ فرعونَ وقومِهِ: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، معناهُ: ما سَمِعْنا بهذا في آبائِنا الماضينَ، والمرادُ بهم: آباؤُهم الأبعدونَ، أي: أجدادُهم؛ إذ آباؤُهم الأقربونَ في حكمِهم، لكونِهم معاصرينَ أو قريبينَ لهُم[2]، وقد أشاروا بوصفِ آبائِهم بالأوَّلينَ إلى انتفاءِ ذلكَ منذُ زمانٍ طويلٍ[3]، ويحتملُ أنَّهم قالوا ذلكَ لفَرْطِ غُلوِّهم في التَّكذيبِ والعِنادِ، وانهماكِهم في الغَيِّ والفسادِ[4]، حيثُ جَعَلوا النَّفْيَ يمتدُّ إلى فترةٍ زمنيَّةٍ متطاولة، وإنْ لم تكنْ كذلكَ في الواقعِ.

بيانُ فَرْطِ الغُلوِّ في التَّكذيبِ والعِنادِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 305، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 43.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 518.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 287.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 130.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»